الفصل الثالث

صفات المؤرخ

يحلو للكثيرين من المثقفين الكتابة فى التاريخ ، والغوص فى أعماقه ، وهذا أمر محمود ، ولكنه لا يعنى أن كل من يحاول الكتابة فى التاريخ يصبح مؤرخا بل لابد أن يتوافر فيمن يكتب التاريخ من الصفات والاستعدادات والظروف ما يجعله قادرا على ذلك العمل وأهم الصفات التى يجب توافرها فى المؤرخ هى :

١ — أن يكون أمينا فى عرض الموضوع ، صلبا فى اظهار الحقيقة اينما وجدت ، حازما شجاعا فى التعبير عن رأيه مخلصا فى عمله ، موضوعيا لا يتملق أحدا ، ولا يتحامل على أحد دون وجه حق ، ولا يجامل ولا ينحيز أو يداهن أو يسلك مسلك الدعاية لأحد ، بل يكون هدفه الأساسى اظهار الوقائع والحقائق التى تتوفر لديه ودراستها وتحليلها وتفسير بواعثها بغرض الوصول الى جوهر الحقيقة التاريخية وحدها اذ لا يوجد رقيب عليه غير ضميره اليقظ ، وخاصة أن تاريخا تمليه الاهواء لا بعدو أن يكون صحيفة تدليس ، وليس شىء أكثر افسادا للتاريخ من التدليس فيه . وأن من يحرف نصا أو ينسبه لغير صاحبه أو يقوم باستخراج ما يلائم هواه أو غرضه منه لسانده حاكم ، أو الخوف من ظلم يقع عليه يدخل فى زمرة من يخلط الصواب بالخطأ ولا يدخل فى عداد المؤرخين فالناس فى حاجة الى معرفة الحق أكثر من حاجتهم الى غوغائى أو منافق يكذب عليهم ، كما أن التاريخ ليس اسطورة لامتناع النفوس ، ولا قص حكايات ، أو رواية روايات ولا هو طرائف يتندر بها بين الناس ، بل هو الحقيقة بحلوها ومرها ، كما أن دراسته تقتضى الموضوعية المجردة البعيدة عن المبالغة والتحيز ، فليس من المنطقى أن يغض المؤرخ الطرف عن حقيقة معينة مجاملة لأحد من الناس اذا كانت الشواهد تدعمها أو الوثائق تؤيدها ولا أن يلبس أحدا

ثوبا من نسيج خياله وهو فى الحقيقة ليس له ، وخاصة ان اساس التاريخ هو الصدق ، وكل مؤرخ يكتمه او يطوى بعضه او يدخل فيه مالا يعتقد فى صحته هو غير جدير بالثقة ، ومثله كمثل المصور الذى يحرص على اخفاء عيوب من يصوره ، واذا كان ذلك جائزا لدى الرسام او المصور او الصحفى فهو غير جائز للمؤرخ .

٢ — أن يكون محبا للدرس جلدا صبورا ، متجشما للصعاب لاستجلاء الجوانب الغامضة وما اغفلته المصادر ، وان يكون مخلصا فى رسالته يتحرى مصادر التاريخ ووثائقه عن هواية ورغبة وطموح وحب للتحصيل لا تمنعه المصاعب او تبعده مصالحه الخاصة عن مزاولة عمله ، بل يجب أن يهب نفسه للدراسة التاريخية ، ويقوم بترميم ماضى الانسانية فى صمت بقدر استطاعته ، ويفنى ذاته من أجل البحث عن الحقيقة بتمهل ودون تعجل وخاصة ان كتابة البحوث ليست بالأمر الهين بل هى فى حاجة الى جلد ومثابرة ، وفحص وتحليل دقيقين لسجلات الماضى ومخلفاته او ما يطلق عليه المنهج التاريخى Historical Method

كما انها تتطلب التعايش مع الموضوع كله ومع أجزائه كى يتمكن الباحث من تأسيس أحكامه بطريقة سليمة .

٣ — أن تتوفر لديه ملكة النقد والتحليل والفحص والاستقراء والقدرة على الموازنة والمقارنة بين المصادر وان يكون ذا عقل واع وافق واسع وفكر منظم لا يصدق كل ما يقراه او يسمعه ، ولا يقبله على انه مسلمات بل عليه أن يستقرىء الحوادث ويرتبها ويربط بينها بغير ان تخلط الحوادث أو يطغى على عمله اسلوب السرد او النقل والاقتباس من الآخرين، وأن يبتعد عن السجع والالفاظ الغريبة والمعانى المبتذلة التى تستعمل للزينة ، وأن ينشد ضالته فى مصادرها ومظان وجودها . ومن لا يتصف بهذه الأمور لن يستطيع أن يميز بين الصحيح وغيره ، ولا يستطيع الحكم على ما بين يديه ، ولا يزيد ما يكتبه على كونه مجرد معلومات موضوعية بين دفاف كتب غير جديرة بأسماء اصحابها ، وخاصة ان القدرة على الابداع والتنسيق بين الأفكار فى أسلوب علمى سليم ، وتعبير واضح هو قوام البحث وعموده ، كما أن استخدام التعبيرات والمصطلحات او الأسماء

الخاصة بأهل المنطقة أو الدولة موضوع الدراسة ضرورة هامة فى كتابة البحث .

٤ — أن يتسم فكر المؤلف بالذوق والتسامح وسعة الأفق والعقلية المتفتحة الواعية ، وأن يميز بين المعارف والحقائق ، وان تكون الحياة كلها خامة غنية لكتاباته وان يفهم بقدر المستطاع الدوافع التى حركت أحوال الأمم والقادة ويستوعب الأمور التى دفعتهم لاتخاذ سلوك معين من واقع أحوالهم ، ولا يجزم بأمر من الأمور اذا كان ذلك الأمر يحتمل قولين ، بل عليه الاحتياط فى القول .

٥ — أن يتميز برحابة الصدر ، وتقبل ما يعرف من آراء مخالفيه تحريا للحقيقة أيا كان مصدرها وقبولا للحق ممن أتى به أيا كان شأنه .

٦ — أن تكون لديه الخبرة الكافية التى تجعله أقدر على فهم أعمال الانسان فى الزمن الماضى ، وتقدير الظروف التى أحاطت به ، والتى أدت الى اتخاذه مسالك معينة فى مواجهة تيارات أو مؤثرات محددة ، وهذا يعنى ضرورة معرفته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تتصل بالعصر الذى يؤرخ له ، والمقارنة بينه وبين العصر الذى يعيشه .

٧ — أن يكون مغرما بالارتحال والسفر خارج وطنه وداخله فى سبيل البحث التاريخى حتى تتفتح أمامه الآفاق ويتعرف على خبرات الآخرين ، ويستطيع مشاهدة مواقع الأحداث التى يتعرض لها عن قرب .

٨ — ألا يتأثر فى كتاباته بالمؤثرات الحزبية والسياسية أو بما ينتق من نظريات وقيم جمالية وأخلاقية وسياسية أو بالظروف الاجتماعية ، والطابع الشخصى بقدر المستطاع فالمؤرخ الذى يتميز بالأمانة الفكرية وان كان ينتمى الى حزب معين أو الى وطن معين أو الى طبقة معينة يستطيع أن يحجب ميوله الكامنة حتى يبلغ أكبر درجة من عدم التحيز ، فاذا قام بتحليل وثيقة أو نص معين فعليه أن يحمل فى ذهنه سؤالا أو مجموعة من الأسئلة توصله الى الحقيقة دون أن يربط نفسه باتجاه معين ومع أننا لا نتكر أن من العسير أن يتجرد المؤرخ من ذاته أو لعواطفه الوطنية

أو لطبقته الاجتماعية أو للجو الحضارى الذى عاش فيه ، فاننا نرى أن الاقتراب من الموضوعية ، وتمكن المؤرخ من تقمص شخصية موضوعه ، والبعد عن كل افتراض سابق ، والالتزام بمناهج البحث العلمى الصحيح ، كل هذا يفرق بين المؤرخ الجيد وغيره ، ويجعل دراسته اكثر علمية وموضوعية .

٩ — الا ينصب المؤرخ نفسه قاضيا يعيد محاكمة الأشخاص الذين سبق أن صدرت عليهم أحكام معاصريهم ويوزع أحكام الاستحسان أو الاستهجان هنا وهناك وخاصة أن العدالة فى الأحكام التاريخية لا تتحقق بسهولة ، كما أن هذه الطريقة يمكن أن تقلب الدراسات التاريخية الى اسلوب من اساليب الدعاية[1] .

١٠ — أن يكون ملما ببعض اللغات لتعينه على تفهم الموضوعات التاريخية التى تدخل ضمن نطاق تخصصه ، وتفتح أمامه آفاق البحث ، والاستقصاء ، والمقارنة .

١١ — أن يكون واسع الثقافة ، ملما بأحداث مجتمعه ، متفهما للمدارس التاريخية المختلفة ، وعارفا بالعلوم المساعدة التى تعينه على تفهم دراسة التاريخ وكتابته ، ولا يكتفى بترديد آراء السلف بل يجب أن يضيف اليها .

١٢ — أن يكون متواضعا ، ولا يدعى المعرفة بكل شىء بل يرجع الى مصادره كلما التبس عليه الأمر للتحقق من معلوماته ، ويعيد النظر فيما كتبه كلما عن له جديد أو ظهر شىء فى كتاباته يستحق اعادة النظر ، فينقد ما كتبه ويصحح ما يجده فى حاجة الى تصحيح ، وقد فعل ذلك المؤرخ الانجليزى « أرنولد توينبى » فنقد كتابه الضخم Study OF History الذى اتمه فى عشرة مجلدات فى كتاب أسماه « اعادة النظر Reconsideration » واطرف ما فى هذا الكتاب أن نقد توينبى لنفسه كان اقسى من اسلوب الناقد الغريب وخاصة أن المؤرخ أعرف بما يكتبه

للتفاصيل انظر :

(1) Hallet, Carr : what is History London, 1961 p. 69 — 77.

من غيره ، قد قام توينبى بالبحث عن اخطائه فى صراحة وشجاعة فريدة ونجح فى ذلك أيما نجاح . وجملة مآخذه على نفسه انه اخطأ فى اعتباره الحضارة اليونانية أساسا للحكم فى سائر الحضارات ، ولاحظ بعد اعادة النظر فيما كتبه انه كان شديد الميل الى التعميم والتوسع فى تطبيق الأحكام الشاملة ، وانه أعطى الأساطير التاريخية من العناية أكثر مما ينبغى . ومع ذلك فان نقده لنفسه لم يقلل فى نظر الآخرين من قيمة عمله ، بل زاده علوا وارتفاعا وخاصة أن كل ما فعله كان اخلاص النظر ، واخلاص التطبيق فيما كتبه .

١٣ — ان يهتم المؤرخ بالاشارة الى مصادر بحثه فى الحواشى حتى يتمكن الآخرون من فحص ما توصل اليه من نتائج والتعرف على الكيفية التى استطاع بواسطتها الحصول على المعلومات التى دونها ، فالمصدر يعد بمثابة شاهد ، تسند اليه المعلومات التى تتم الاشارة اليها .

١٤ — أن يبتعد المؤرخ عن الخيال لأنه ليس من المنطقى أن يتصور اشياء لم تحدث ، ولكن اذا كان ذلك الخيال مرتبطا بالواقع فانه يعد عنصرا ذاتيا أولا وآخرا وخاصة انه يتمثل دائما ماضى المجتمعات الانسانية فى ضوء ما يعرفه عن الطبيعة الانسانية .

١٥ — الا ينحصر عمل المؤرخ فى سرد أحداث الماضى بل لابد له من اصدار أحكام معيارية لتحديد قيمته ، لأنه لا يمكن فهم الماضى الا من خلال احداث الحاضر ومشكلاته[1] وخاصة أن المؤرخ ليس بالعبد الخاضع للحوادث ، وليس بالسيد المستبد بها بل يجب أن تكون صلته بالحوادث هى صلة الند بالند ، وأن تكون علاقته بها متبادلة بين الماضى والحاضر وخصوصا أن الطبيعة الانسانية كثيرا ما تنطوى على بعض السمات الثابتة .

وفى النهاية يمكن القول بأن المؤرخ الحقيقى انما هو انسان موهوب أوتى من الثقافة والعلم حظا كبيرا مكنه من الغوص فى اغوار الماضى ، وشق الطريق داخل منعرجاته ومنحدراته بهدف الوصول الى الحقيقة والصواب .

---

(1) Hallet : op. cit., p. 14 .